لقد كذبت عليّ أُمي

د. علي زين العوفي

لقد كذبت عليّ أمي

اسم الكتاب: لقد كذبت عليّ أمي

المؤلـــــــف: علي زين العوفي

رقم الإيداع: 0245 / 2025

مراجعة لغوية: هيلانا حنا

إخراج فني: هيلانا حنا

لقد كذبت عليّ أمي

علي زين العوفي

إهداء

إلي روحي الغالية، فربما لا أجد من يُهدي إليَّ كتابًا بعد رحيلي.

في ظلام الليل، وداخل غرفة مكتب، تظهر إضاءة مصباح كهربائي، إضاءةٌ خفيفةٌ تضيء مكتبة خشبية كبيرة. يجلس عليها رجلٌ كبير السن، في عقده السادس حاملاً قلماً جميل الشكل، يكتب على ورق مُسطر، يكتب بيدِه ويتحدث بفمه قائلاً:

جميعكم تعلمون من أكون، وبعد عودتي للكتابة بعد سنوات طويلة من الغياب، فأحب أن أذكركم بنفسي؛ أنا الكاتب محسن إبراهيم الشاذلي كاتب الشارع المصري، اشتهرت كتبي ورواياتي أنها من عمق الشارع، داخل الأسواق الشعبية، وبين الباعة الجائلين.

قضيتُ سنوات طويلة في عالم الأدب، وحصلتُ على الكثير من الجوائز، وكانت مسيرتي حافلةً بالنجاحات، وهذا بفضل

الله أولاً ثم فضلكم عليّ، ولكني عدتُ للكتابة؛ لأخبركم عن قصة طفلٍ، هو بطل كبير بالنسبة لي، وأتشرف أمامكم بكتابة مقدمة هذا الكتاب، وسيكملها لكم بطل الحكاية وكاتبها، والذي التقيت به داخل ناقلة نقل عام تتجول في شوارع القاهرة في منتصف اليوم، حيث وجدت طفلاً صغيراً فصيح القول، قوي اللغة، فمن النادر أن تجد هذه الصفات في طفلٍ لم يتعد عمره عشر سنوات، كان جالساً بجوار شرفة الناقلة ينظر منها، والهواء يضرب في وجهه ويحرك خصلات شعرِه الجميل الناعم، أبيض الوجه، جميل الشكل والروح، ينظر إلى الطرق بتعجبٍ، وكأنه لم ير هذا الشارع من قبل، لم يكن مرافقاً لأحد، تعجبتُ كونه وحيداً داخل هذا العالم المزدحم من الناس، وسط زحام الحيـــاة الشاقة التي

يعاني منها أغلب ركاب الناقلة.

- مع من تكون؟

كان سؤالي للصغير الذي لم يلتفت داخل الناقلة، وكانت عيناه شاخصتين إلى الطريق، وملامحه تعكس القلق في كل تفاصيل وجهه

- لا ليس معي أحد.

كان يتحدث بالعربية الفصحى، فأعجبني القول ولكن لم يعجبني الكلام.

- إلى أين تذهب؟

صمتَ قليلاً، وبعدها قال لي:

- لا أعرف.

- أنت تائه عن أهلك أم عن الطريق؟

فرد بإجابة صعبة:

- لم يعد لديّ أهل ولا مكان!

شعرتُ بالحزنِ، ولكن قال لي جملةً غريبةً؛ فارتجف قلبي وحزنت بعدها نفسي.

- لقد كذبت عليّ أمي.

إلى هنا، سأكتفي بالكتابة، وإلى هنا أيضاً، انتهى دوري وتشرفت بكتابة مقدمة هذا الكتاب، والذي سيكمله لكم بطل الحكاية وكاتب القصة البطل "غفران ".

اسمي غفران، في العاشرة من عمري، أعيشُ داخل إحدى مناطق الجيزة، لا أريد أن أخبركم عنها، أعيشُ مع والدتي،

والتي كانت تعمل معلمة لغة عربية، ولهذا علمتني جمال اللغة من صغري، وجعلتني أتحدث اللغة الفصحى مع الناس. الأمر الذي جعلني موضع سخرية للبعض، وتنمر للبعض الآخر، ولكن كلما أخبرتها بذلك، وأنني أحب أن أتكلم كما يتكلم الناس؛ تحزن من حديثي، وكانت تقول لي هذه لغتنا الأصلية، وأريدك أن تتميز بها وتتجمل بحديثها، اليوم يسخرون منك، ولكن غداً سيفخرون بك.

لم أر أبي؛ فقد مات وأنا رضيع في حادث أليم وهو يسعى للقمة العيش، وقامت أمي بتربيتي بمفردها داخل شقة بعقار قديم، وكانت تخشى عليّ من الشارع، فيومي كان داخل الشقة ليس لديّ أصدقاء كباقي الأطفال، ولكن كلما نزلت الشارع وتحدثت مع أطفال المنطقة، كانوا يسخرون مني ومن

حديثي، وكنت موضع سخرية وتنمر، ولذلك كنت أصعد إلى شقتنا وأقف في شرفة الشقة، وأكتفي بمشاهدة الأطفال وهم يلعبون، أما أمي فكانت تعمل معلمة لغة عربية، وتعطي دروساً داخل شقتنا لعدد كبير من الطلاب، وكنتُ دائماً أجلس بالقرب منها أسمع حديثها وفصاحة لغتها، وهذا ما جعلني أتحدث العربية بشكل لبق.

كانت أمي دائماً تفرض عليّ الأشياء بحجة أنها تفهم عني وخبراتها أكثر مني، كانت دائماً صاحبة كل قراراتي، تصاحب فلان وتبتعد عن فلان، لا تلعب الكرة في الشارع حتى لا تصاب بمكروه أو تجرح قدميك، وكانت تنصحني أن أرافق الطلاب المتميزين والمتفوقين، وأن أبتعد عن الطلاب المشاغبين، رافق الطالب آدم، فهو طالب ذكي ومتفوق،

ولكن كلما حاولت الاقتراب منه أو الحديث معه كان يبتعد عني وكأنه لا يريد مرافقتي، والغريب كان يأمر بعض الطلاب بضربي ويقف بعيداً يشاهد ما يحدث لي وهو في قمة سعادته، إلى أن يأتي فريد ويقوم بضربهم وإبعادهم عني ويحميني من إيذائهم وتنمرهم، ولكن كلما وجدت فريد بجانبي أبتعد عنه خوفاً من أن تراني أمي معه وتعاقبني، فريد كان طالباً قوياً، يخاف منه زملاؤه داخل المدرسة، ولكن مستواه التعليمي كان سيئاً، وأمي كانت دائماً تنصحني بالابتعاد عنه، فشلت في تكوين أصدقاء مع طلاب الفصل، فالذي تجبرني أمي على مصاحبتهم كانوا أكثر الطلاب إيذاءً لي، ويمثلون أمامها بحبهم الشديد لي أثناء إعطائها حصة اللغة العربية داخل الفصل.

وفي يوم من الأيام، جاء طالب جديد إلى مدرستنا، وكان يسكن بالقرب من شارعنا، كان يدرس في مدرسة خاصة، وقام والده بنقله إلى مدرستنا الحكومية بسبب تكاليفها المادية العالية، وجلس بجانبي، اسمه مازن يرتدي نظارةً فكان يعاني من ضعف النظر، كان شعره كثيفاً وأبيض اللون وجميل الشكل، شعرت بالسعادة عندما جلس بجانبي، فأنا على أعتاب اكتساب صديق جديد، وما جعلني أتقرب إليه أكثر أنه كان يعاني من التنمر من باقي الطلاب لكونه كان في مدرسة خاصة، وتعاملها أفضل بعض الشيء من مدرستنا، نحن الاثنان نعاني من مشكلة التنمر وضعف الشخصية، أحبَ حديثي بالفصحى وكان يحاول تقليدي، وهذا ما جعلني أرتبط به، والشيء الأجمل بأن أمي سمحت لي

بمصاحبته، لا أريد أن أطيل عليكم بأشياء قد تبدو لكم مملة بعض الشيء، ولكن قصتي ستبدأ من هذا الحدث!

غاب أحد المعلمين ودخلت بدلاً منه الأخصائية الاجتماعية، والتي كانت تتميز بحبها لعلم النفس وأشياء لم نكن نفهمها، وقالت لنا شيئاً غريباً:

- سنلعب لعبة جميلة سوياً، ستقومون بإحضار كراسة صغيرة، وستصنفون كل شيء تلتقون به في حياتكم اليومية، كونه جميلاً أم غير ذلك بالنسبة لكم سواء أشياء تحدث لنا أو ناس نلتقي بهم، إلى أن نلتقي في مثل هذا اليوم الأسبوع القادم.

كان تحدياً غريباً، ولكن قررت أن ألعب وأحضرت كراسة جديدة، وأول شيء كتبته فيها: إني تقابلت مع مازن، وأنا أحب

مازن، إذاً مازن جميل، ثم قابلت مراد، والتي أخبرتني أمي أن أبتعد عنه، ولأن الطلاب تخاف منه بجانب مستواه التعليمي السيء، وآدم الذي كانت تحبه أمي لأنه كان متفوقاً، ولكن لم يكن يحبني وكان يؤذيني، وعقب انتهاء اليوم الدراسي وأنا عائد إلى الشقة برفقة أمي أخبرتها عن تلك اللعبة وأعجبتها وقررت أن تلعبها معي.

وفي الطريق رأيت سيارة شرطة، وبعض رجال الشرطة يقفون في الطريق فسألت والدتي:

- هؤلاء رجال الشرطة؟

قالت لي:

- نعم

- وماذا أكتب عنهم؟

- اكتب عنهم شيئاً جميلاً لأنهم يقومون بحمايتنا.

وفي طريقنا وفجأة، تكاثفت السحب وتساقطت الأمطار.

- إنها تمطر.. ماذا أكتب عن المطر يا أمي؟

- اكتب: المطر جميل لأنها تأتي بالخير.

وفي طرقنا مررنا على متجرٍ لشراء بعض السلع والطعام ومالكه كان يدعى عماد، كانت أمي تشتري منه كل ما تحتاج، وكان يعاملنا معاملة جيدة ويبتسم في وجه أمي دائماً.

- ماذا أكتب عن عم عماد البقال؟

- اكتب: إنه رجل محترم وجيد.

أكملنا الطريق تحت غزارة المطر حتى التقينا بـ عشري، عشري كان شاباً كثير المشاكل، يحمل دائماً سلاحاً أبيض في يديه، عصا، سكيناً، وأشياء أخرى، طويل الشعر واللحية يرتدي ملابس خفيفة تظهر جسده النحيف، وسلسلة فضية كبيرة تحيط رقبته، وآثار جروح ونتوء في وجهه وجسده، يسبب الزعر والقلق لأهل المنطقة ويخاف منه الجميع، تأخذه الشرطة من حين لآخر عدة أيام ويعود مرة أخرى بنفس أسلوبه وطريقته المؤذية، يعيش على الإتاوة، يأخذ أموال من سائقي السيارات الأجرة والملاكي، الأجرة للعبور وتنظيم الطريق، والملاكي لحمايتها من السرقة، والجميع كان مُجبراً على دفع المال له، كلما وجد أمي يضحك في وجهها ويتغزل بها بطريقته العشوائية، وبعدها يطلب منها

الزواج كل مرة دون مللٍ، وكان ردها عليه دائماً بأنها أكبر منه بأكثر من عشر سنوات، وعند مدخل العقار كان يجلس عم أيوب صاحب العقار؛ رجل ثقيل الوزن، في نهاية الخمسين من عمره، يجلس دائماً عند مدخل العمارة ويقرأ الصحف اليومية، عم أيوب لم يكن محبوباً من أهل المنطقة، ولكن كان يحترم والدتي ويعاملها بطريقة حسنة، لا أعلم إذا كان رجلاً صالحاً أم لا، ولكن تخبرني أمي أنه شخص جيد، طلب الزواج من أمي عدة مرات ولكنها كانت ترفض وهذا لم يغير معاملته الحسنة لها، فكتبت في كراستي عم أيوب صاحب العقار رجل جيد، كان غاضباً أثناء دخولنا العقار والسبب الذي أخبرنا به أن الأطفال كسروا مصباح الكهرباء الذي يضيء مدخل العقار.

لماذا يضعون هذا العمود الحديدي الطويل هنا طالما الأطفال يكسرون مصباحه من حين لآخر؟ وهل هو شيء جيد أم لا لأكتب ذلك في كراسة اللعبة.

أخبرتني بأنه شيء جيد؛ لأن العمود الحديدي به مصباح كهربي يضيء الطريق.

صعدنا درجات العقار، ودخلنا شقتنا، وجلست أسأل أمي عدة أسئلة، سألتها عن عائلتي والتي لا أعلم عنهم شيئاً، وأخبرتني بأنهم أناس جيدون نحبهم ويحبوننا، ولكن هذا غير صحيح، علمت قصة عائلتي من أمي عندما كانت تتحدث مع إحدى صديقاتها، علمت أنها تزوجت أبي وعائلتهم كانوا يرفضون هذا الزواج، ولكن أصروا على الزواج وغادروا مدينتهم وعاشوا هنا في الجيزة، وبسبب ما حدث انقطع

علاقتهم بالعائلة، ولكن أخبرتني أمي أنهم جيدون، إذاً عائلتي التي لا أعلم عنهم شيئاً أناس جيدون، وكتبت هذا داخل كراسة اللعبة، مر يومان وأنا أكتب داخل كراسة اللعبة: الناس الجيدون؛ هم عم أيوب صاحب العقار لأنه يعاملنا معاملة جيدة، حتى لو تأخرنا عن دفع الإيجار، عم عماد البقال رجل جيد، أذهبُ إليه وأشتري منه الأشياء ولا يطلب مني أموالاً، وأمي تحاسبه في نهاية اليوم، جارنا العم شكري لم يكن علاقتنا به كبيرة، ولكن لم نر منه شيئاً سيئاً، وأخبرتني أمي بأنه رجل جيد، أما عشري البلطجي كما كانت تقول أمي؛ فهو شخص سيء لأنه يقوم بإيذاء الناس، كما أخبرتني عن أشياء جميلة في طريقنا؛ كالمطر، ورجال الشرطة، وعمود الكهرباء، أما أصدقائي في المدرسة: كتبت عن صديقي مازن جميل وأحبه كثيراً، آدم أخبرتني أمي أنه

متفوق وجيد، وأنا لا أرى أنه يعاملني بشكل جيد، ولكن سأكتب عنه كما قالت لي أمي أنه جيد، أما مراد فهو ليس جيداً، لأنه غير متفوق ولا يعرف شيئاً عن التعليم ويخاف منه الطلاب.

وفي اليوم التالي، لم يأت مازن إلى المدرسة، وعلمنا من الناس بأنه مات، حزنت عليه حزناً شديداً وبكيت طوال اليوم، مات نتيجة صاعقة كهربائية من عمود الإنارة عند عودته من المدرسة أثناء سقوط الأمطار، مات صديقي الوحيد وعدت وحيداً كما كنتُ قبل قدومه إلى المدرسة.

وفي اليوم التالي، حدثت المصيبة التي غيرت حياتي رأساً على عقب، ذلك اليوم الذي لا يُنسى، استيقظت من نومي متأخراً وفات موعد المدرسة، والغريب أن أمي لم تنادِ عليّ ولم

توقظني من نومي كما يحدث كل يومٍ، ذهبت إليها وجدتها نائمة على صالون الشقة وليست داخل غرفتها، اقتربت منها فلم تشعر بي، ناديت عليها فلم تستيقظ، هزيت جسدها فلم تستجب، أمي لا ترد، شعرتُ بالخوف وكأني في مكان مهجور، خرجت من الشقة وطرقت باب جيراننا وأنا أبكي.

- أمي لا ترد عليّ.

ذهب خلفي جاري شكري بلهفةٍ وقلقٍ وخلفه زوجته، دخلا شقتنا وحاولا إفاقة أمي ولكنها لم ترد عليهما، وضعت زوجة عم شكري أذنها على صدر أمي، وضربت بيدها على صدرها بصدمة وقالت،

- انقطعت أنفاسها.

صرخت وبكت وتجمع سكان العمارة في شقتنا، وتأكد الخبر أمي المُعلمة أشجان قد ماتت.

ماتت أمي ودُفنت مع أبي، ولم يعد لديّ أحد في هذه الحياة، شعرتُ وكأني مثل شخص تائه في صحراء طويلة، أنتظر من يُنقذني ولا يوجد منقذ في هذا الموقف سوى أمي، الجميع كان حولي لمدة يومين بعد وفاتها، ولكن لا أشعر بوجود أحد، وبعدها أغلق عليّ الباب وحيداً، تائهاً، خائفاً لا أصدق ما حدث، كنت أشعر وكأنها ستخرج من غرفتها لتأخذني بين أحضانها، ولكن انتظرت ذلك لساعات طويلة ولم يحدث، فالموت أكثر الحقائق المؤلمة.

وفي اليوم التالي، قام عشري بجمع عدد من جيران الحي وتزعم الجلسة قائلاً:

- هذا الطفل ليس لديه أحد في الحياة سوانا، وسنكون جميعاً أهله، ستدفعون جميعاً مبلغاً شهرياً ينفق منه، وسأتولى تحصيله بنفسي، ومن الغد سأذهب للبحث عن أهله، لن نتعدى الأصول، أما والدته -رحمها الله عليها- لن نعرف شيئاً عنها، ولكن والده -رحمه الله- كان صديقاً لي وأعرف من أين يكون، وسأذهب للبحث عن أهله وأخبرهم بهذا الصغير.

كان الجميع يهز رأسه موافقاً على الكلام، ولكن لم يرد عليه أحد ولم يظهر أحد اهتماماً، اختفى عشري لمدة يومين، كنت جالساً في غرفتي داخل الشقة، وفجأة طُرق الباب، ذهبت وفتحت الباب وجدت عم أيوب، جلس بجانبي وهو ينظر إلى

أركان الشقة بشيء من الطمع وقال لي:

- ما سأخبرك به سيكون سراً بيني وبينك، سآخذك إلى مكان جميل يعيش فيه أطفال جميلون مثلك، به ألعاب، وحدائق، ومعلمون، ومعلمات يعلمونك، سيعجبك هذا المكان أفضل من أن تعيش هنا بمفردك.

لم أفهم حينها ماذا يقصد حتى غادر الشقة، وفي الليل شعرت بالجوع، ذهبت إلى غرفة أمي لأخبرها أنني جائع، ولكن تذكرت أنها ماتت عندما لم أرها داخل غرفتها، فتحت باب الثلاجة لم أجد شيئاً آكله، ولا أعرف كيف أجهز لنفسي وجبة طعام. أغلقت باب الثلاجة وذهبت إلى عم عماد

البقال، كان يطفئ أنوار المحل ليغلقه وطلبت منه حينها أن يعطيني شيئاً، ولكنه أخبرني بتردد بأنه أطفأ النور.

- احضر غداً، وسوف أعطيك كل ما تريد.

عدت إلى الشقة، وأغلقت الباب، وجلست بمفردي لا أستطيع النوم، وبعد منتصف الليل دق جرس الباب، شعرتُ بالخوف، ذهبت ونظرت من العين السحرية فوجدت عشري، شعرت بالخوف أكثر ولم أفتح الباب، وبعد لحظات وجدته يدخل من باب البلكونة، شعرت بالخوف وكدت أن أصرخ، ولكنه ذهب إليّ مسرعاً وقال لي:

- لا تخف، عذراً تأخرت عليك، انظر ماذا أحضرت لك!

فتح حقيبة كان بداخلها طعام طازج؛ من الدجاج المشوي، والأرز، والطحين.

- أعلم أن الجميع مشغول عنك، وأعلم أنك تشعر بالجوع، احضر لي كوباً من المياه وهيا لنأكل سوياً.

شعرت حينها بالسعادة، واطمأن قلبي لعشري، وأحضرت كوب المياه، وأكلت معه حتى شبعت، وبعد أن انتهينا من تناول العشاء قال لي:

- شعرت بك عندما طرقت عليك جرس الباب، وعلمت أنك بالداخل، وأعلم أيضاً أنك تشعر بالخوف تجاهي، وأن والدتك -رحمها الله- حذرتك مني، ولكن لا تخف سأكون في ظهرك، ولن يؤذيك أحد ما دمتُ حياً، سأخبرك شيئاً أحزنني، ذهبت إلى

أهلك وطلبت منهم أن تعيش معهم ولكن جميعهم تهربوا مني، أخبروني أنهم لا يعرفون عنك شيئاً ولا عن والدك منذ أن غادر البلد، وجدك وجدتك توفاهما الله.

تركني وغادر، وفي اليوم التالي وفي منتصف اليوم، جاء إليّ اثنان لا أعرفهما، وخلفهما عم أيوب، وطلبا مني الذهاب معهم لمكان جميل أعيش فيه أفضل من هذا المكان، كانا حسنَي المظهر والكلام، ذهبت معهما، والغريب هو شعور السعادة الذي كان على وجه عم أيوب، وعقب وصولنا الشارع وقبل أن أركب سيارتهما حضر عشري مسرعاً، وفي يده عصا كبيرة ومنعني من الركوب معهما، وطلب منهما مغادرة المكان وإلا سيحطم سيارتهما ويقوم بالتعدي عليهما،

حاول عم أيوب السيطرة عليه وأن يدعهما يأخذاني ولكن غضب عليه وهدده بالضرب، وأخذني من يدي وقال لهم:

- لن يذهب معكما، نحن هنا جميعاً أهله وسنتولى تربيته.

خافا منه، وتركاني ورحلا، ونظر إلى أيوب وقال له:

- تريد أن تضعه داخل ملجأ أيتام لتأخذ شقته، هذا لن يحدث ولو حدث ذلك ستندم طيلة عمرك.

أخذني من يدي وصعد إلى الشقة ووضعني بالداخل وقال لي:

- لا تترك مكانك ولا تجعل أحد يجبرك على ذلك، أما أنا سأذهب لعم أيوب وأصفي حسابي معه.

وقبل أن يغادر سألته:

- لماذا لم تجعلني أذهب معهما؟

- لقد تربيت داخل دار أيتام، وأعلم جيداً الحياة بالداخل، ولا أريد ما حدث معي يحدث لك.

تحدث الحي كثيراً عن هذا الحدث، وعلمت أن عم أيوب عرض مبلغاً مالياً كبيراً لعشري مقابل ابتعاده عني وتسليم الشقة، ولكنه رفض هذا العرض.

عشت أياماً صعبة، لم يهتم بي أحد سوى عشري، كان يحضر لي الطعام ويأخذني إلى المدرسة، كان يتعامل معي بكل حبٍ عكس ما كان يتعامل مع باقي الناس، فظل كما هو عشري دائماً يحمل العصا والسكين للناس، وفي يوم من الأيام سمعت صوت صراخ عشري في الشارع وهو يقول:

- والله لم أفعل شيئاً!

وجدت رجال الشرطة يجردوه من ملابسه ويحملوه بقسوةٍ داخل عربة الشرطة، وآخر ما قاله قبل دخوله سيارة الشرطة:

- اعتنِ بنفسك يا غفران.

ثم نظر إلى أيوب وقال له:

- لو علمت أنك وراء ذلك، وطرد الطفل من شقته والله لن أتركك.

أخذت الشرطة عشري، وعاد لي إحساس الخوف مرة أخرى، وفي اليوم التالي، وأنا عند مدخل العقار أخبرتني إحدى السيدات التي تعيش معنا في العقار قائلة:

- أختبئ يا غفران، لقد علمت أن عم أيوب سيحضر لك بعض الناس لأخذك إلى دار أيتام.

سمعت منها القول وذهبت مسرعاً، لا أعرف أين أذهب أو أختبئ، تمشيت من شارع إلى شارع وكنت أشعر وكأن أحداً يتبعني، الشيء الذي جعلني أركب ناقلة نقل عام.

جلست على كرسي بجانب شرفة الناقلة أشاهد الطريق لا أعرف أين أذهب، حتى جلس بجانبي رجل كبير كان ينظر إلى الناس جميعاً، وكأنه يبحث عن شيء، حتى خرج عن صمته وقال لي:

- مع من تكون؟

كنت أشعر بالخوف فقلت له:

- لا، ليس معي أحد.

لم أنظر إليه، فكُنت أرد عليه وأنا أنظر من شرفة الناقلة تجاه الطريق فقال لي:

- إلى أين تذهب؟
- لا أعرف.
- هل أنت تائه عن أهلك؟
- لم يعد لديّ أهل أو مكان.

صمت قليلاً وشعرت أنني أريد الحديث معه.

- لقد كذبت عليّ أمي

ثم انهرت بالبكاء!

اقترب مني وكأنه في حالة من الصدمة وقال لي:

- احكِ ما بداخلك يا صغير.

نعم، كذبت عليّ أمي؛ أخبرتني أن أصاحب آدم، فهو طالب مجتهد وأن أبتعد عن مراد، آدم كان يحاول إيذائي ويجعل أصحابه يقومون بضربي، ويشاهد ذلك من بعيدٍ وهو يضحك، والذي يقف معي ويحميني من تنمرهم وإيذائهم لي كان مراد الذي حذرتني من مصاحبته، ضحكت عليّ أمي عندما قالت لي: أن المطر يأتي بالخير، وعمود الإنارة جميل يضيء الطريق، ورغم ذلك كانوا سبباً في موت أعز صديق لي واسمه مازن، عندما صعق بالكهرباء بسبب الأمطار، كذبت عليّ عندما أخبرتني أن عم عماد البقال رجل جيد، وذهبت إليه لسد جوعي في الليل ولم يعطني شيئاً لأني لم أكن أملك المال، لقد كذبت عليّ أمي عندما أخبرتني أن عم أيوب رجل

صالح، وبعد وفاتها طردني من الشقة ليأخذها مني، وبلغ عني ليضعني داخل دار أيتام، كذبت عليّ أمي عندما أخبرتني أن عشري البلطجي رجل سيء وأن أبتعد عنه، وبعد وفاتها هو الوحيد الذي وقف بجانبي وكان يطعمني ويحميني، كذبت عليّ أمي عندما أخبرتني أن الشرطة جيدة لأنهم يقومون بحمايتنا؛ إذن لماذا قاموا بالقبض على عشري الذي يحميني ويطعمني؟ كذبت عندما قالت لي أن عائلتي جيدون نحبهم ويحبوننا؛ إذن لماذا رفضوا استقبالي، وأن أعيش معهم بعد أن أصبحت يتيماً.

شعر الرجل بالصدمة من حديثي، وأخذني في أحضانه وقال لي:

- اهدأ أنا معك ولن أتركك.

طلب مني أن أذهب معه، ونزل من الناقلة وأخذني بسيارة ملاكي خاصة إلى بيت جميل في مكان جميل، كان يعيش فيه ومعه رجل في نفس عمره، كان في الستين من عمره، متوسط الجسد، بيته كان عبارة عن صور كثيرة على الحائط وقلادات وجوائز يبدو أنه شخص مشهور، يكتفي بوجود صديق له فقط في بيته لا يوجد له زوجة ولا أولاد، طلب منه إحضار طعام لي عندما رآه قبل أن يلقي عليه السلام، رفضت في بداية الأمر رغم شعوري بالجوع، ولكن أصر على إحضار الطعام، أكلت بلهفة وكان تركيزه معي أثناء تناول الطعام أكثر من تركيزه على مائدة الطعام، وكأنه كان يريد أن يسألني عن آخر مرة أكلت فيها.

- عذراً لم أتناول الطعام منذ الأمس.

جاوبت على سؤاله قبل أن ينطقه فتعجب من إجابتي وقال لي:

- ولكني لم أسألك!

فقلت:

- ولكنك تريد أن تعرف.
- ما اسمك؟ وما حكايتك أيها الصغير؟
- اسمي غفران جمال سعيد.

وأخبرته قصتي كاملة، شعرت معه بالراحة وأحببت الحديث معه، كان وجهه بشوشاً جميلاً تحب أن تتحدث معه، سألته على صوره الكثيرة وجوائزه، علمتُ أنه كاتب كبير ويدعى محسن إبراهيم الشاذلي، وكان عنده مكتبة كبيرة مليئة

بالكتب وكانت كتبه ورواياته تملأ المكتبة، تحدث عن نفسه كثيراً تمنيت أن أكون مثله، ذهب إلى صاحبه وعلمت أنه مدير أعماله وأعطاه اسمي وطلب منه أن يسأل عني، وبعد ساعة أخبره عن قصتي كما أخبرته بها، أخذني إلى غرفة أحد أولاده وقال أنها ستكون غرفتي، تعطف معي وكأنه في احتياج لي كما أنا بحاجة إليه.

- نام الآن، وغداً نتحدث في كل شيء.

قالها لي وغادر الغرفة، كانت الغرفة شديدة الجمال ومرتبة بشكل جيد، وعلى الحائط صور لشخص في جميع فئات عمره يبدو أنه أحد أولاده، لم أشعر بنفسي عقب إلقاء جسدي على السرير من شدة التعب، نمت كثيراً هذه الليلة بسبب إحساسي بالأمان الذي غاب عني بعد وفات أمي.

وفي الصباح استيقظت من نومي وخرجت من غرفتي فلم أجد أحداً، وبعد لحظات من البحث وجدته يجلس في البلكونة، كانت البلكونة كبيرة ومليئة بأشجار الزينة والورود وبها مكتبة كتب صغيرة أيضاً، جلست بجانبه دون أن أتحدث.

أغلق كتابة وقال لي:

- لماذا أنت صامت؟
- احتراماً للكتاب والقراءة.

تعجب من إجابتي وأخذ يكررها ثم قال:

- فهمني؟

- أمي علمتني ذلك عندما كانت تقرأ لا أتحدث معها ولا أصدر صوتاً احتراماً للكتاب والقراءة، وأخبرتني أن القراءة شيء مقدس مثل العبادة، أمرنا الله بها قبل العبادة.
- شيء عظيم، أتعلم يا غفران والدتك امرأة عظيمة، ولكن لماذا قلت لي ونحن في الناقلة بأن أمك كذبت عليك؟

قصصت له منذ أن طلبت منا المعلمة أن نلعب ونكتب في كراسة خاصة، تصنيف الأشياء التي تحدث لنا كونها جيدة أم لا، وكذلك الأشخاص الذين نقابلهم في يومنا أو الذين هم موجودون في حياتنا، وأخبرته عن كراستي وماذا كتبت فيها، أعجبته هذه الفكرة وسألني:

- وهل عرفت لماذا طلبت منكم المعلمة هذا؟
- لا، أخبرتنا أننا سنعرف في الحصة المقبلة، وبسبب موت أمي لم أحضر.

فأجاب:

- والدتك لم تكذب عليك وهي امرأة عظيمة، هي فقط أخطأت في شيء عندما ألزمتك بأشياء تبدو لها سيئة من وجهة نظرها، ولم تجعلك تكتشف هذا بنفسك، كثير من الآباء يقعون في خطأ الإلزام، لا تفعل ذلك وافعل ذلك بناءً عن تجربتهم وهذا خطأ، تجاربنا للأشياء مختلفة، الأمر الذي لم يكن مناسباً لوالدتك من الممكن أن يكن مناسباً لك، أتعلم والدي كان كاتباً، ولكنه لم يكن مشهوراً قضى

سنوات عمره في الكتابة ولم يحصل على مال أو شهرة، وهذا الأمر جعل حياتنا صعبة، وعندما لاحظ حبي للكتابة حذرني منها وأمرني أن أهتم بعملي، ولكني أحببت الكتابة وما حدث لي أخبرني أن الحب لم يكن من طرف واحد فأحبتني الكتابة، وأعطتني لي الكثير من المال والشهرة عكس ما حدث مع أبي، وأخطأت أنا عندما حذرتُ ابني من السفر للعمل بالخارج لأن تجربتي مع السفر إلى العراق كانت سيئة، ولكن نجح ابني فيها عندما أصر على السفر، جمع الكثير من المال ونال مناصب عالية، التجربة ليست واحدة، وكذلك الأشياء، المطر شيء جميل ومصدر سعادة ويأتي بالخير، ولكن من الممكن أيضاً أن يكون مصدر تعاسة لناس آخرين،

بيوتهم بغير سقف أو ليس لديهم مأوى أو كما حدث مع صديقك مازن، وكذلك البحر نأكل منه الخير ونسافر من خلاله ومصدر سعادة لألاف الناس ولكن هو مصدر تعبي وحزني لأن ابني الكبير مات غارقاً فيه، كذلك الأشخاص أيضاً..

- أتعلم لماذا أمرتك المعلمة بذلك لتخبركم بإحدى نظريات علم النفس وهي نظرية "الانعكاس الشخصي" وهو أن الشخص ينعكس أثره حسب طبيعة الشخص الذي يتعامل معه، لا يوجد شخص سيء مع الجميع، والشخص السيء الذي في حياتنا من الممكن أن يكون مصدر سعادة وحب لناس آخرين، أو حسب الموقف الذي نمر به فلا

يوجد شخص سيء في جميع المواقف، والدليل على ذلك عشري الذي أخبرتني عنه، كان بلطجياً وشخصاً سيئاً بناءً عن أفعاله القديمة وفي نظرة والدتك، ولكن ما فعله معك يدل على أنه شخص طيب وشهم، الحقيقة الثابتة بأنك لا تحكم على الشخص بشكل عام، بل تحكم عليه بناءً على تجربتك معه.

كان يوماً عظيماً بالنسبة لي، وحديثي مع ذلك الرجل كان سبباً في راحة قلبي وأحببته حباً كثيراً، سألني لماذا تتحدث اللغة الفصحى ولا تتحدث بالعامية؛ فأخبرته بأن أمي هي من علمتني ذلك وأرادت أن أكون هكذا ولن أتغير بعد وفاتها، كان هذا الرجل شديد المدح لوالدتي، وتمنى لو لحق بها وهي على

قيد الحياة.

مرت الأيام والشهور وأنا في بيت هذا الرجل العظيم، كان يعاملني معاملة الأب، الإحساس الذي كان ينقصني، وفي يوم من الأيام لاحظت أن حالته الصحية تنهار، وعلمت بأنه يعاني من أورام خبيثة، ولكنه لم يخبر أحداً إلا مساعده، كان هذا الرجل علاقته بأولاده ضعيفة بسبب انشغالهم عنه، وفي يوم من الأيام وقبل أن أدخل عليه غرفته سمعته يتحدث مع مدير أعماله وصاحبه، لم يكن حديثاً عادياً فكان توصية، تلك الجملة التي بقيت تتردد في أذني طويلاً، وعلمت بعدها بأن نهاية هذا الرجل العظيم قد اقتربت.

- اسمعني جيداً يا صاوي اعتنِ بغفران جيداً من بعدي هذه وصيتي لك، لم ينعم عليك الله بنعمة

الإنجاب خذه ابناً لك وصدقني ستحبه كثيراً كما أحببته.

حينها ذهبت بعيداً حتى لا يشعر بوجودي أحد منهما، وقلبي يبكي على ما سمعته، وبعد دقائق أخبرني العم صاوي أن أبي محسن في انتظاري، كان أول مرة يقولها.. أبي.. وهو حقاً أبي، ذهبت إليه وأنا أحاول إخفاء حزني حتى لا يشعر بأنني سمعته وقال لي:

- اسمع يا غفران، أنت تملك من الحكمة ما لم يملكه طفلاً في نفس عمرك، وتملك لغة عربية قوية، وقصتك عظيمة، أريد منك أن تكتب قصتك للناس ستكون كاتباً عظيماً، وأسمح لي أن أشاركك كتابة هذه القصة بكتابة المقدمة فقط وبعدها تكمل أنت

القصة.

تعجبت من طلبه ولكني شعرت بالسعادة وبعدها تغيرت ملامحي وقلت:

- ولكني لا أعرف كيف أكتب!

فقال لي:

- جميعنا لم يكن يعرف الكتابة ولكننا كتبنا بما في قلوبنا ووصل لقلوب الناس، اكتب وستكون قصتك رائعة.
- وأنا أيضاً أريد منك طلباً صغيراً؟
- تفضل يا بني.

- أريدك أن تساعد عشري في الخروج من السجن، وأن تخبره بأني بخير وفي أحسن حال.

ابتسم وقال لي:

- عشري خارج السجن منذ أيام يا غفران، من بعد ما أخبرتني بما فعله معك، وعلم أيضاً أنك بخير، ويعمل الآن داخل شركة كبيرة، صاحبها صديق لي.

شعرت بالسعادة وفعلت ما قاله لي، وكتبت قصتي وأسرعت في كتابتها، وساعدني كثيراً في كتابتها رغم مرضه الشديد، وبنهاية القصة مات هذا الرجل العظيم، مات قبل أن يراها كتاباً، اشترت دار النشر الكتاب بمبلغ مالي كبير، علمت بعدها سراً بأنه هو من دفع هذا المبلغ لصديقه مدير دار

النشر لأنفق من هذا المبلغ وأبدأ به حياتي، أهديت الكتاب على روحه النقية الطاهرة، سألته قبل وفاته:

- ماذا أسمي هذا الكتاب أو هذه القصة؟

قال لي:

"لقد كذبت عليّ أمي".

تمت بحمد الله

النهاية